بناء الرحمة في القرآن

إعداد:
الصالحة المرتجي
السنة الثانية من سلك الدكتوراه
الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية
المغرب

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه على جميع خلقه، وميزه بالعقل وشرفه بالدين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، الذي كانت الغاية من إرساله إلحاق الرحمة بالعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

تعيش الإنسانية بسبب انحسار قيمة الرحمة في المجتمعات أنواعًا متعددة من المعاناة، كالعنف وانعدام الأمن والسلام وغيرها من مظاهر الشذوذ في الحياة والسلوك، والحديث عن قيمة الرحمة إنما ينبع من وجود الأمة في أزمة، وليس لهذه الأمة في أزمتها من خلاص إلا باستصحابها للرؤية القرآنية.

إن قيمة الرحمة تتعلق ببناء الإنسان، وبمجال التدافع الحضاري في سعي المنظومة الغربية إلى عولمة القيم، التي من خلالها جردت الإنسان من إنسانيته، وهذا ما يدفع إلى العمل على تأصيل القيم الفطرية والأخلاقية والإنسانية، تلك القيم التي تدرك بالفطرة، ويستوعبها العقل، ويقر بها المنطق، ويدعو إليها القرآن أكثر استيعابًا وإنسانية من تلك الأحادية النمطية، التي تحاول المنظومة الغربية تعميمها على الجميع.

ومما لا شك فيه أن الأمة الإسلامية تعاني تدهورًا حضاريًّا، جعلها

منسلخة عن قيمها ومتعلقة بقيم الآخر ومقولاته في إطار الجدلية القائمة بين التراث والحداثة، فمفهوم الرحمة التي تحاول الأمة الإسلامية استلهامه من الآخر بحمولته الفكرية الغربية متأصل في حضارتنا، لذا فمحاولة تقرير قيمة الرحمة أمر مطلوب من الناحية الشرعية والواقعية، خاصة في ظل هذه الأزمة التي تعيشها الأمة، علمًا أن أزمتها أزمة فهم، فهي تحتاج لمنهجية في التنزيل لاستخدامها في حل الإشكالات والأزمات التي تعاني منها الإنسانية، إذ أصبحت القسوة والعنف من سمات الحياة بسبب انحسار قيمة الرحمة.

ولعل المتتبع للحراك الثقافي العربي، يلاحظ أن حقل قيمة الرحمة شكل أحد أبرز الحقول المعرفية في الفترة المعاصرة، مما يؤشر على الأهمية الكبرى لتلك القيمة في البناء الإنساني والكوني.

ويضاف إلى أهمية الموضوع أن الرحمة هي محور الرسالة الخاتمة، والغاية العامة التي بعث النبي ﷺ لتحقيقها، الأمر الذي يستدعي بذل الجهود من الأمة لنشر ثقافة الرحمة، لدحض مزاعم من يظن أن الإسلام دين عنف وغلظة وشدة وإرهاب، ودفع الشبهات الموجهة للإسلام على أنه دين التعصب، والتأكيد على أنه دين التسامح والسلام، خاصة في ظل العولمة التي هي أحد الأسباب الأساسية في انتشار العنف الذي يهدد الإنسانية ومستقبلها.

ومن أجل بناء العلاقات الإنسانية السليمة أقر القرآن قيمة الرحمة، التي تضفي على العلاقات الإنسانية الهدوء والأمن والسلام، والتي في ظلها تنمو حقوق الإنسان وحرياته الأساسية.

وقيمة الرحمة لو تصالحت البشرية عليها إيمانًا بها وإقرارًا بأهميتها، لامتدت جسور التعايش والتفاهم بدل الصراع والتنافر.

ويأتي الاهتمام بقيمة الرحمة المستوحاة من القرآن الكريم على

رأس الاهتمامات المتداولة اليوم على أيدي الباحثين، وذلك لما وصلت إليه الإنسانية في الواقع المعاصر من تجاذب لرؤى متسلطة ومهيمنة عليها من أجل تحقيق سعادتها، وكون قيمة الرحمة متأصلة في الوعي الإنساني، وشاملة لكل قيم السلوك، فهي الحصن المنيع لحماية الإنسانية من مختلف الأخطار، خاصة في هذا العصر الذي استشرى فيه العنف بشتى أنواعه، كما أنها إطار منظم للحياة، ومشترك إنساني بين الأمة الإسلامية والغرب، قابل لأن يكون مدخلًا للحوار معه، لصيانة الإنسانية وإنقاذها من الضياع، لذلك ما أحوج الإنسانية في كل زمان ومكان، أن تستشعر معالم هذه الرحمة وتترجمها على أرض الواقع.

من هنا تأتي هذه الدراسة وما يرتبط بها من إشكالات، قصد اكتشاف مفهوم الرحمة في القرآن، وإبراز تجلياتها ودورها في البناء الحضاري.

ولقد حصرت هذه الدراسة منهجيًّا في القرآن الكريم، من أجل الوصول إلى دراسة تصحيحية لمفهوم قيمة الرحمة، انطلاقًا من الوحي المؤسس والمستوعب والمحدد للمفاهيم، وبناء عليه، فما قيمة الرحمة في القرآن الكريم؟ وكيف يمكن طرح قيمة الرحمة على مستوى الحضارة العالمية الراهنة؟.

الدراسات السابقة في الموضوع:

بعد البحث واطلاعي المتواضع على الدراسات القرآنية لم يقع نظري على دراسة قرآنية أفردت موضوع بناء الرحمة في القرآن برؤية كونية حضارية، وإنما وردت الرحمة متعلقة بمواضع أخرى مركبة، وفي أبواب تضمنت الأخلاق الإسلامية أهمها:

- خلق المسلم لمحمد الغزلي.
- أصول الإيمان والإسلام لوهبة الزحيلي.
- حضارة النبوة رحمة للعالمين لعمر عبيد حسنة.

فجاءت هذه الدراسة لتبين أن من تجليات الرحمة في القرآن التنوع والاختلاف.

أهداف الدراسة:

- التأكيد على أن القرآن الكريم هو المحدد للمفاهيم والمستوعب لها.
- الدعوة إلى التراحم في الواقع المعاصر، الذي انتشر فيه العنف بكل أنواعه.
- التأكيد على مركزية الرحمة بوصفها خلًّا لتجاوز إشكالات الواقع المعاصر، وإبراز قيمتها في البناء الحضاري.

منهج البحث:

والمنهج الذي سأتبعه في هذه الدراسة، هو منهج استقرائي تحليلي وصفي ومقارن، والذي من سماته:

- المدارسة الكاشفة للنصوص واستبطان مدلولاتها.
- عرض الأفكار وتحليلها.

مقارنة نسق الموضوع المعرفي ونقده وتقويمه، في ضوء مناهج وتصورات مشابهة أو مناقضة.

وانطلاقًا من الإشكالية التي أثرتها أعلاه، فقد جاءت الدراسة تتضمن مقدمة ومحورين وخاتمة.

المحور الأول: ويتضمن مفهوم الرحمة في اللغة والقرآن والاصطلاح.

المحور الثاني: ويتضمن بعض تجليات الرحمة في القرآن، بالتركيز على أن التنوع والاختلاف رحمة.

المحور الأول
مفهوم الرحمة في اللغة والقرآن والاصطلاح

يُعدُّ المفهوم المفتاح الأساس لكل باب من أبواب المعرفة، كما أشار إلى ذلك الشاهد البوشيخي بقوله: «المفهوم هو أساس الرؤية، والرؤية نظارة الإبصار التي تريك الأشياء، كما هي بأحجامها وأشكالها وألوانها الطبيعية، أو تريكها على غير ما هي: مصغرة مكبرة محدبة أو مقعرة».(١)

أولًا: الرحمة في اللغة

تجمع المعاجم اللغوية على أن مفهوم الرحمة مأخوذ من مادة (ر ح م): «الراء والحاء والميم أصل واحد، يدل على الرقة والعطف والرأفة»(٢)، وفي لسان العرب لابن منظور "الرحمة: الرقة والتعطف والمرحمة مثله، وقد رحمته وترحمت عليه وتراحم القوم، رحم بعضهم بعضًا... قال عكرمة في قوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة، أي عطفًا وصنعًا»(٣). وفي التعريفات للجرجاني: الرحمة «هي إرادة إيصال الخير»"(٤).

وبهذا، فالرحمة في اللغة تجمع على معنى واحد، وهو الرقة والعطف وإيصال الخير.

(١) نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، الشاهد البوشيخي، فاس ط ١، ٢٠٠٢م، ص: ١٧.
(٢) مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مج٥، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩١م ص:٤٩٨.
(٣) لسان العرب ابن منظور، مادة « رحم «، مج ٦ ط٤، ٢٠٠٥ ص: ١٢٤ ونفس المعنى وارد في مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي طبعة محققة، مكتبة لبنان ١٩٨٦ م، ص: ١٠٠.
(٤) التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني مكتبة لبنان، طبعة جديدة ١٩٨٥ م، ص: ١٥.

ثانيًا: مفهوم الرحمة في القرآن

قبل أن أتطرق للموضوع، لا بد من الإشارة إلى أن المصطلح عنوان المفهوم، كما يؤكد على ذلك الشاهد البوشيخي بقوله: إن "المصطلح الإسلامي في أصله القرآني خصوصية ومفهومية غير قابلة للتغيير والتبديل، وذلك حسب الطريقة التي استعمل بها اللفظ في القرآن الكريم"(١).

فالمفهوم في القرآن الكريم قد نظم نظما بديعا، في نسق تجلى في الرؤية القرآنية الشاملة في قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، ففي الاستعمال القرآني لمادة (ر ح م)، فقد وردت٣٣٩ مرة، وإذا أضفنا إليها البسملة التي في مقدمة سورة الفاتحة، باعتبارها آية عند بعض العلماء، فإنها تكون ٣٤٠ مرة، وقد وردت بصيغ مختلفة، بصيغة الفعل والاسم والمصدر:

مادة «ر ح م»	عدد ورودها في القرآن	مادة «ر ح م»	عدد ورودها في القرآن
رحم	٤	رحمتك	٣
رحمته	١	رحمتنا	٥
رحمنا	١	رحمته	٢٥
رحمه	١	رحمتي	٢
رحمناهم	١	الراحمين	٦
ترحمون	١	الرحمن	٥٧
ترحمني	١	الرحيم	٩٦

(١) نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، الشاهد البوشيخي، دراسات مصطلحية: ٣، ص: ٣٠.

مادة «ر ح م»	عدد ورودها في القرآن
يرحم	١
يرحمنا	١
يرحمكم	٢
سيرحمهم	١
ارحم	١
ارحمنا	٣
ارحمهما	١
ترحمون	٨
رحمة	٧٩

مادة «ر ح م»	عدد ورودها في القرآن
رحيما	٢٠
رحماء	١
أرحم	٤
بالمرحمة	١
الأرحام	٩
أرحامكم	٢
أرحامهن	١
رحما	١

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة:٦٤] قال رشيد رضا في تفسير المنار: «فمن فضله وإحسانه أن امتن عليهم بما عاملهم به من الفضل والرحمة والصفح عما يستحقونه من المؤاخذة والعقوبة»(١)، وفي تفسير البغوي "فلولا فضل الله عليكم ورحمته «يعني بالإمهال والإدراج وتأخير العذاب»"(٢).

وفي سورة الأعراف قال ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] قال الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير: "ورحمة الله إحسانه وإيتاؤه الخير"(٣)، وفي تفسير القرطبي "قيل أراد بالرحمة الإحسان"(٤).

(١) تفسير المنار، رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر ط٢، ج. ١، ص: ٣٤٢.
(٢) تفسير البغوي، الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة للنشر والتوزيع، ج١، ص ١٠٣.
(٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، مج٤، ج. ٨. ص١٥٣.
(٤) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج٧، ص ٢٠٦.

وقال ﷻ في سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨] قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: "الرحيم الشديد الرحمة، والرحمة رقة تقتضي الإحسان للمرحوم"(١) وفي تفسير الآلوسي "رحيم بدفع الضرر عنهم وجلب المصلحة لهم"(٢). وفي سورة الأحزاب قال تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: "ورحمته بالمؤمنين تشمل إسداء النفع إليهم وإيصال الخير لهم بالأقوال والأفعال والألطاف"(٣)، وفي تفسير سيد قطب "إشعار القلوب برحمة الله ورعايته وغايته بأمر الخلق وإرادة الخير لهم وهو الغني عنهم"(٤). وبناء على ما تقدم فمفهوم الرحمة في الشرع مفهوم شمولي يقتضي التفضل والإحسان وإيصال الخير إلى الغير.

وخلاصة القول: إن مفهوم الرحمة في الرؤية القرآنية مفهوم شمولي، يطرح الأمن والاستقرار، ويحث على المنافسة في تحقيق المصلحة العامة، والمصلحة هي مقصد جامع لمقاصد الشريعة.

ثالثًا: الرحمة في الاصطلاح

وفي الاصطلاح «الرحمة كمال في الطبيعة يجعل المرء يرق لآلام الخلق، ويسعى لإزالتها، ويأسى لأخطائهم، فيتمنى لهم الهدى والرحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه، فإن

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور م. ٥. ج. ١١ ص. ٧٣، م. س.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي محمود شكري، دار إحياء التراث العربي، ج١١، ص٥٣.
(٣) التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور، ج٢٣، ص ٤٩، م س.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٧، ١٩٩٢م، مج٥، ج٢٢، ص ٢٨٧١.

رحمته شملت الوجود، وعمت الملكوت، فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء أشرق شعاع الرحمة الغامرة»[1].

والرحمة «تتجاوز الإسعاف بالحاجات إلى الإنماء للقدرات، أي أنها تتسع لما يدخل في باب زيادة الخير والتنمية والتقدم».[2]

وإجمالًا فقيمة الرحمة هي أساس البناء الاجتماعي، ومفعلته ومنطلق كل تعامل بشري، سواء مع ذاته أو مع غيره أو مع محيطه، وهي قيمة معيارية، تتوفر على سمات حضارية وخصائص إنسانية، تجعلها عالمية الأبعاد، وإنسانية التوجه، نافعة في الدارين معًا.

(١) خلق المسلم، محمد الغزالي، دار البيان الكويت، ص: ٢٥١ ـ ٢٥٧.
(٢) روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط٤، ٢٠٠٩م، ص: ٢٥١.

المحور الثاني
من تجليات الرحمة في القران الكريم

أولًا: التنوع والاختلاف ضرورة ورحمة.

إن التنوع والاختلاف سنة كونية وضرورة بشرية، وهو «بين الناس أمر واقع ولن يرتفع، وكل أمل في القضاء عليه ومحوه فهو وهم وسراب... فليس أمامنا سوى أن نسلم به، ونحسن التعامل معه، والاستفادة منه، واختلاف الخلق ليس قدرًا مستقلًّا سلطه الله عليهم، بل هو جزء من طبيعتهم، ولازم من لوازمها.»[1] فاختلاف الناس طبيعي، وهو سنة كطبيعة خلقه ﷻ للكون والحياة "فالكون خلقه ربه الأعلى ﷻ مختلف الأنواع لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٧-٢٨]، ولكن هذا الاختلاف الذي نبه عليه القرآن ليس اختلاف تضارب وتناقض، بل هو كما نؤكد دائمًا اختلاف تنوع، بل نجد القرآن ينفي بعبارة صريحة ما بني عن التضارب في الكون في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]"[2]، فالتنوع والاختلاف ظاهرة طبيعية في حياة البشرية،

(١) التعدد التنظيمي للحركة الإسلامية ما له وما عليه، أحمد الريسوني، دار الكلمة ط: ١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص: ١٥.

(٢) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دراسة في فقه الاختلاف في ضوء النصوص والمقاصد الشرعية، يوسف القرضاوي، دار المعرفة، الدار البيضاء، (بلاط، ت) ص: ٦٩..

«كطبيعة الحياة، فهي أيضًا تختلف وتتغير بحسب مؤثرات متعددة، منها المكان والزمان. والاختلاف مع كونه ضرورة هو كذلك رحمة»[1]. لذلك «من العبث كل العبث أن يراد صب الناس كلهم في قالب واحد في كل شيء، وجعلهم نسخًا مكررة، ومحو كل اختلاف بينهم، فهذا غير ممكن، لأنه مخالف لفطرة الله التي فطر الناس عليها، وغير نافع لو أمكن، لأنه لا نفع في مخالفة الفطرة»[2]، بل والقرآن يقر أصل الاختلاف في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

يقول سيد قطب: "لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد وباستعداد واحد... نسخًا مكررة، لا تفاوت بينها، ولا تنويع فيها، وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على هذه الأرض وليست طبيعة هذا المخلوق البشري الذي استخلفه الله في الأرض، ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته، هكذا اقتضت سنة الله، وجرت مشيئته"[3]. وقال ابن عاشور في تفسيره: "أعقب ذلك بأن الاختلاف دائم بينهم، لأنه من مقتضى ما جبلت عليه العقول"[4].

وذهب بعض المفسرين في معنى هذه الآية إلى أن الله خلقهم «للاختلاف والرحمة».[5] والاختلاف المقصود الذي تتحقق به الرحمة هو اختلاف تنوع، الذي مصدره الإثراء والخصوبة، «فعلة الخلق وغايته اختلاف التنوع الذي به يكون الإغناء والإثراء والتبادل المعرفي والثقافي والنمو، والارتقاء والتنافس والتحريض الحضاري، فوجود (الآخر) من لوازم استمرار الحياة،

(١) نفسه ص: ٧٠.
(٢) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص٤٥.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، مج٤، ج١٢، ص ١٩٣٣م، م س.
(٤) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج١٣، ص ١٩٠، م س.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار طيبة، ١٤٢٢ه ٢٠٠٢م، ج٤، ص ٣٦٣. م س.

وجدليتها وسننها في المدافعة والمنافسة والمغالبة الشريفة»[1]. وبما أن الاختلاف هو اختلاف تنوع، لا اختلاف تضارب وتضاد، كما أن «أمر التنوع في النص القرآني لا يتوقف عند هذا الحد، بل جاءت نصوص أخرى تؤكد عليه في أمر انقسام البشر إلى مجموعات بشرية، تشكلت في أمم أخرى في القبائل والشعوب، أي هي التشكيلات البشرية التي يوجهها النص القرآني إلى التعارف من أجل اللقاء، لا التصادم من أجل الجفاء والتناكر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات:١٣]»[2]، «إذ حقيقة التعارف هو أنه التعاون على المعروف وترك التعاون على المنكر»[3]. والرحمة من مبادئها التعاون الذي به تتحقق المصالح كما تقدم.

فالحياة الإنسانية كلها قائمة على نهج التعارف القائم على التراحم، «إن هؤلاء البشر الذين [لا يزالون مختلفين] مأمورون بسبب اختلافهم بين [ذكر وأنثى وشعوب وقبائل بالتعارف]، أي أن ينفتح كل منهم على الآخر، وأن يحفظ مصالحه بالحسنى والعمل الصالح».[4] وفي هذا تحقيق لقيمة الرحمة، التي تتميز بها «حضارة الإسلام وفلسفته عن غيرها، باعتبار أن هذا التنوع والاختلاف والتباين، إنما هو سبيل التعايش والتعاون والتكامل والتعارف ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾، فالأمين والأكرم والأفضل هو الأكثر عطاء وإحسانًا، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾»[5]. والإحسان من القيم التي تستبطنها قيمة الرحمة، فقد جاءت الأحاديث كثيرة حاثة

(١) حضارة النبوة رحمة للعالمين، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٢٨ه ٢٠٠٧م، ص: ٨٩.
(٢) الإسلام والآخر، أسعد السحمراني، دار النفائس، ط: ١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص:١٢.
(٣) الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبدالرحمن، ج: ١، ٢٠٠٥م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ص: ١٢.
(٤) التسامح، ع: ١١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، فكرية إسلامية السنة الثالثة مقال عبدالرحمن السالمي لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، ص١٠.
(٥) . حضارة النبوة رحمة للعالمين، عمر عبيد حسنة، ص: ٩٠، م، س.

على الرحمة الشاملة، فقال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»[1]، فالمسلمون يؤمنون أن الاختلاف سنة من سنن الله في الكون والناس، وآية من آياته الدالة على رحمته «فالاختلاف والتنوع والتمايز آيات لمن يريد أن يتصف بالعلم، وبتمايز الناس شعوبًا وقبائل يتحقق التعارف والتآلف والتعاون بين المختلفين... وقد تكون هذه الاختلافات تعبيرًا عن هويات متمايزة، لكنها موجودة معًا في المجموعة الواحدة، أو الشخص الواحد في تناغم وانسجام»[2]. والتنوع والاختلاف مقصد من مقاصد الرحمة، «وهذا التنوع والاختلاف إما أن يقرأ حضاريًا على أنه نعمة لما يمكن أن يتحقق به من التكامل والتعارف والتثاقف والتلاقح والتعايش والتفاهم، الذي ينتج النمو والارتقاء وبناء المشترك الإنساني -وهنا تتجلى رحمته- وإما أن يقرأ بأبجدية خاطئة فيتحول إلى نقمة، ويشكل بؤرة للصراع والمواجهة والهيمنة وإلغاء الآخر[3]»، كما أكد على ذلك الكاتب اليهودي الأمريكي صامويل هنتنجتون، الذي يتوقع تطور صدام الحضارات خلال العقدين الأول والثاني للقرن الحادي والعشرين»[4]، وهنتجتون هذا أهمل «أن قضية الحياة الدنيا وصيرورتها المبدعة تكمن في هذا التغاير»[5]. والتنوع والاختلاف، فإن الهدف من هذا التغاير يجيب القرآن: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١] إن هذا التغاير والتدافع المركوز في جبلة بني آدم، يقود إلى تحريك «الحياة نحو الأحسن، وتخطي مواقع السكون والفساد، ومنح القدرة للقوى الإنسانية الراشدة، كي تشد عزائمها قبالة

(١) صحيح البخاري للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم ٢٠١٣، ص ١٥٠٨.
(٢) إسلامية المعرفة، العدد: ٥٦، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص: ١٦، فتحي حسن مكاوي القيم العالمية.
(٣) حضارة النبوة رحمة للعالمين، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ص٦.
(٤) كتاب الأمة، الإسلام وصراع الحضارات، أحمد القديري، عدد: ٤٤، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص: ٥٦.
(٥) عماد الدين خليل المسلم والآخر: رؤية تاريخية، إسلامية المعرفة السنة التاسعة، عدد: ٣٣- ٣٤، صيف، وخريف ٢٠٠٣م، ص: ٩٢.

التحديات، وأن تسعى لتحقيق المجتمع المؤمن، الذي ينفذ أمر الله وكلمته في العالم»[1]، عن طريق التعارف والتراحم الإنساني.

والذي جعل من الاختلاف أحد العوائق التي تعوق تقدم الأمة، هو التركيز على الاختلاف عوضًا عن منهج التعامل معه، «وطالما أننا سلمنا بحقيقة التنوع والاختلاف في الخلق، فيلزم عن ذلك تنوع الأديان والثقافات والأفكار والمذاهب والملل والنحل (تنوع الاختيارات)، ولولا وجود من لا يؤمن لما كان هناك داع لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، والواقع دليل ذلك»[2]. إن رؤية الاختلاف السلبية المادية هي وقود إذكاء روح التمييز والعداء، وهي المناخ والبيئة التي تجعل وجود الاختلاف والتنوع حرابًا متقابلة، وبذلك يسهل الصراع والظلم والقسوة والاستعلاء والتسلط والعدوان في العلاقات الإنسانية بين الدول والأعراق والأمم، والتي بسببها ذاقت الإنسانية المعاصرة جرائم الاستعمار والحروب العالمية، التي تتهدد الإنسانية حتى اليوم بباقات اختراعات آلات الدمار الشامل بيد أنظمة عنصرية تسلطية لا تؤمن إلا بسياسات القوة»[3].

ولكن رحمة الإسلام وفلسفته هي «الرؤية الوحيدة التي أبرزت وأكدت وحدة الإنسان، وأكدت وأبرزت في كل الاختلافات، وعلى المستويات الإنسانية كافة معاني التنوع، وأبعاد التكامل في إطار الوحدة الإنسانية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء]، ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ

(١) عماد الدين خليل، المسلم والآخر، رؤية تاريخية، ص: ٩٣، م س.
(٢) حضارة النبوة رحمة للعالمين، عمر عبيد حسنة، ص: ٩١، م س.
(٣) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، د. عبدالحميد أبو سليمان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ط: ١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص: ٩٤.

بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ [الزخرف:٣٢] وهي الفلسفة والرؤية الكونية التي ضبط وقع علاقاتها التكاملية في دوائر متداخلة»[١]، ففي القرآن الكريم هناك نسق واتساق وزوجية وتكامل وتعارف وتنوع ورحمة، فهو «يتحدث عن الكون وكأنه بني على سنة الاتساق، في حين أن الفكر الغربي يستبطن الصراع بين الإنسان والآلهة في الفكر الإغريقي، وفي كل العلوم الاجتماعية والإنسانية تقريبًا، فالصراع في هذا الفكر كلية وقانون يسعى إليه الكون، وكثير من الأمور لا يمكن تفسيرها من وجهة الفكر الغربي إلا من خلال قانون الصراع، في المقابل نجد في القرآن الكريم نسق الاتساق والزوجية والتكامل والتداول والتعارف وسنن التكوين والتفسير، فالكون كله مسخر يسبح، يسجد متسق في طريق عبادة الله ﷻ، أما الصراع في السنن الإلهية فهو صراع مؤطر... صراع يؤول إلى وفاق ينتهي ولا يتم تكريسه»[٢].

وبهذا فهل قيمة الرحمة من القيم التي يقوم عليها نظام إنساني عالمي سلمي، يؤمن بوحدة الإنسان وتكامله وتعاونه في إطار التنوع والاختلاف؟

إن لقيمة الرحمة في التنوع والاختلاف دورًا أساسيًّا في التعايش الحضاري، «فالإسلام لم ير خطرًا يتهدد دولته ومجتمعه من جراء إقرار صيغة للعيش المشترك بين معتنقيه وبين غيرهم من أتباع الديانات الأخرى، بل قدم مثالاً حيًّا وتطبيقًا رائعًا لهذا المبدأ، يحق لنا نحن المسلمين أن نعتز ونفخر به على غيرنا من الأمم والشعوب، التي ما زال بعضها حتى اليوم يضيق عن الاعتراف بالآخرين، وبحقهم في ممارسة عقائدهم المخالفة»[٣]. فالإسلام رسالة رحمة وعطف على البشر كلهم، لقوله

(١) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، د. عبدالحميد أبو سليمان ص: ٩٤.
(٢) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها محمد هيشور ص: ١١، طبعة: ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
(٣) الاجتماع العربي الإسلامي مراجعات في التعددية والتنوير، السيد محمد حسن الأمين، ص:٦٧، قضايا إسلامية معاصرة، « ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وهذا ما يميز«الرؤية الكونية القرآنية الإعمارية: أنها على العكس من الرؤية المادية العدوانية العنصرية الحيوانية، تجعل من الاختلاف والتمايز الإنساني والكوني رؤية توحيدية تكاملية، تتكامل فيها مختلف الكيانات، ويتألف فيه المشترك، ويفعل فيها المختلف إيجابيًّا، ليكون علاقات متداخلة متكاملة إيجابية توحيدية، هي لب الفطرة الإنسانية السوية، ومناط وجودها واستخلافها في الأرض»[1]. ولا يكون ذلك إلا بتحقيق قيمة الرحمة التي يسعى إليها الإنسان، ويطلبها بفطرته رحمة وتعاونًا إنسانيًّا.

وقيمة الرحمة لها مركزيتها في البناء الحضاري بإقرارها الحق في الاختلاف، وبهذا فهل يمكن اعتبار الحق في الاختلاف أبعد من التسامح؟

جرى «إعلان سنة ١٩٩٥م الحق في الاختلاف وذلك باقتراح، يجعل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، المعلن من قبل الجمعية العمومية والأمم المتحدة في واحد كانون الأول ١٩٤٨، يبدأ بهذه العبارات: "إن كل الكائنات البشرية تختلف عن بعضها البعض، ومن ثم فهي متشابهة، تختلف في العرق واللون والجنس والثقافة والدين واللغة وغيرها من التعبيرات عن الإنسانية، التي تتجسد وتجعل الناس يتشابهون، كائنات لها موهبة التفكير، وكذلك إمكانية الفهم والإفهام. وانطلاقًا من هذا التفاهم المتبادل، الذي لا غنى عنه يجب أن يبدأ التأكيد على الحق في الاختلاف، مما يتأتى عنه احترام حقوق الآخرين التالية"[2]، وإذا ما ربطنا الموضوع هنا بما سلف، فقيمة الرحمة تراعي احترام حقوق الغير، سواء كان إنسانًا أو حيوانًا أو نباتًا أو غير ذلك، وتجعل الحق في الاختلاف من مبادئها الأساسية، إذ الأصل في منهج التراحم أن نمنح الحقوق لا أن نسلبها، وأن تدع المقابل يرضى لا أن

(١) الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، عبدالحميد أبو سليمان، ص ٩٠، م.س.
(٢) مجلة التسامح صيف، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، العدد ٧، السنة الثانية، الحق في الاختلاف أبعد من التسامح، عاطف علبي ص: ٢٠١.

يسخط»[1]، وهي قمة الرشد في المنهج القرآني، ولذلك «لا يكفي التسامح، يجب القبول باختلافات وتنوعات الآخر، واعتبارها بمثابة اختلافاتنا وتنوعاتنا... فاحترام وفهم الاختلاف والتنوع يعني إغناء تنوعنا الخاص بهويتنا، بالنتيجة تغتني هويتنا بالتماس مع هوية الآخر، كما أن هوية الآخر تغتني من هويتنا»[2]، وذلك بالتراحم والتفاهم والاحترام المتبادل والإشكالية، فهل يتحقق حفظ التسامح في الاختلاف والتنوع بمبدأ الرحمة؟.

وهذا يدفع للبحث عن علاقة الرحمة بالتسامح، للرد على أعداء الإسلام الذين يصفونه بالعنف والتعصب والعنصرية.

ثانيًا: التسامح رحمة.

إن مبدأ التسامح من مبادئ الرحمة التي دعا إليها الإسلام، وهو ضرورة لتحقيق الأمن والسلام في البشرية حتى تعيش الإنسانية جو الإخاء والتعاون على ما فيه الخير لها.

والمقصود بالتسامح في هذا الإطار، تسامح الإسلام ورحمته بالآخر المخالف له، وهو من أهم المباحث التي ينبغي ولوجها خاصة في ظل الواقع المعاصر، لأن التسامح "من خصائص دين الإسلام، وهو أشهر مميزاته، وإنه من النعم التي أنعم بها على أضداده وأعدائه، وأدل حجة على رحمة الرسالة الإسلامية المقررة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، لقد أسس الإسلام للتسامح أسسًا راسخة، وعقد له مواثيق متينة، وفصل فصلًا مبينًا بين واجب المسلمين بعضهم مع بعض في تضامنهم وتوادهم من جهة ما يجمعهم من الجامعة الإسلامية، وبين حسن معاملتهم مع من تقتضي الأحوال مخالطتهم من أهل الملل الأخرى،

(١) قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لدولة قطر، ط:١، محمد عبدالوهاب الخطيب، ١٤٣١ هـ.

(٢) مجلة التسامح ع: ٧، الحق في الاختلاف أبعد من التسامح عاطف علبي ص: ٢٠١ م س.

وقاعدة هذه الأسس هي القاعدة الفكرية النفسية، وتلك هي أن القرآن وكلام الرسول ﷺ في مناسبات يعلم المسلمين أن الاختلاف ضروري في جبلة البشر، وأنه من طبع اختلاف المدارك وتفاوت العقول في الاستقامة. وهذا المبدأ إذا تخلق به المرء، أصبح ينظر إلى الاختلاف نظره إلى تفكير جبلي، تتفاوت فيه المدارك إصابة وخطئا لا نظره إلى الأمر العدواني المثير للغضب قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود:١١٨][1]، وبهذا فهل بتطبيق قيمة الرحمة في التعامل مع الآخر بإقرار مبدأ الاختلاف يتم تحقيق التسامح؟.

إن الرحمة والتسامح من «المبادئ الأساسية التي قامت عليها السياسة الإسلامية التي رسمتها الشريعة الإسلامية في العلاقة بين الناس بعضهم مع بعض، وبصفة خاصة في تعامل المسلمين مع غيرهم، هذه الرحمة التي تمثل أصلًا من أصول التشريع الإسلامي، هي هدف الإسلام توجب مراعاة آدمية الإنسان... ومن أجل بناء العلاقات الإنسانية السليمة بين الأفراد وبين الجماعات، دعا الإسلام إلى التسامح المنطقي الذي لا ينطوي على استسلام للشر، وإطلاق ليد الخارجين على النظام. ولقد وردت الآيات القرآنية موضحة أن دفع العداوة بالتسامح غير الذليل هو الذي يجلب المحبة والإخاء، ويضفي على العلاقات الإنسانية الهدوء والسلام والتشجيع على احترام الحقوق المتبادلة، وتجنب العمليات الانتقامية أو الثائرة، التي تدفع إليها الأحقاد، والتي في ظلها تهدد حقوق الإنسان وحرياته الأساسية»[2]. قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

فالتسامح يحقق التوازن والسلام والأمن النفسي المبني على الرحمة،

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م، ص ٢١٦/ ٢١٧.

(٢) مجلة التفاهم، قيم الإسلام وأخلاقيات الحرب والسلام، إبراهيم محمد العناني، ص: ١٩. م س.

يقول الرسول ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[١] ولقد أكثر النبي ﷺ من الحث على الرحمة، فقال بعض الصحابة: كلنا رحيم يا رسول الله قال: «ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة الناس رحمة العامة»[٢]. رحمة عامة رحمة شاملة لجميع البشر، مهما تعددت أجناسهم، واختلفت مللهم، وذلك في إطار احترام متبادل يطبعه التسامح «وعندما يتحول التسامح إلى احترام متبادل، وهي صفة أكثر إيجابية، فإن نوعية العلاقات ترتقي بشكل واضح، ومن ثم فإن الاحترام المتبادل يشكل أساسًا لإقامة مجتمع تعددي، وهو نوع المجتمعات الذي يمثله الحوار العالمي ذاته، لا يتميز بالاستقرار فحسب، بل باحترام تنوعه الذي يغنيه»[٣].

وبما أن التسامح هو احترام حق التنوع والاختلاف، وهذا الأخير رحمة كما تقدم، فهل التسامح رحمة باعتباره واجبًا أخلاقيًّا؟

ينبغي أن يكون الهدف من إقامة التسامح بين الثقافات والحضارات، هو إشاعة قيمة الرحمة بالمعنى الشمولي لها كما قرره الإسلام، حفظًا لقيمة الوجود على حد تعبير طه عبدالرحمن، وهو الذي يناقض التعصب والتطرف والصراع، ويؤمن بحق الاختلاف، لأن «التسامح يظهر مفعوله في المواقع، التي هي مظنة ظهور ضده، أعني التعصب»[٤].

وبما أن قيمة الرحمة من القيم التي تعمم التسامح مع المسلمين وغير المسلمين، فهي «تعصم الحضارات من الطغيان والاستبداد والاستكبار في الأرض».[٥]

(١) سنن الترمذي باب ما جاء في رحمة الناس رقم الحديث ١٩٢٤، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية، ط١، ج٨، برقم، ١٣٦٧١، ص ٢٤٢، وقال: رجاله رجال الصحيح.
(٣) جيران في عالم واحد، نص تقرير لجنة إدارة شؤون المجتمع العالمي، ترجمة مجموعة من المترجمين، مراجعة عبدالسلام رضوان، عالم المعرفة، ع، ٢٠١، سبتمبر ١٩٩٥م، ص: ٧٢.
(٤) نفسه.
(٥) أصول النظام الاجتماعي، الطاهر بن عاشور، ص: ٢١٩، م س.

فاستبطان الرحمة للتسامح ليس ضعفًا أو تساهلًا، وإنما «إقرار بحقوق الإنسان العالمية والحريات الأساسية للآخرين، ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن يستخدم لتبرير الاعتداء على تلك القيم الأساسية، ويجب أن يمارس التسامح من قبل الأفراد والمجموعات والدول».[١] ففي التسامح تحقيق للرحمة التي هي من القيم المشتركة بين الأديان، لكن «لا نجد في السماحة مع المخالف في الدين أرجى ولا أعلى من هذا الأفق الذي وجدناه في شريعة الإسلام»[٢]. لأن المبادئ «والقيم التي دعا إليها الإسلام التسامح مع غير المسلمين والتعامل معهم بروح إنسانية عالية، لا تتعصب ولا تحقد على من خالفها».[٣] فمبدأ التسامح يتناقض مع التعصب والصراع، باستيعابه وقبوله للآخر «اتساقا مع احترام حقوق الإنسان، ولا تعني ممارسة التسامح القبول بالظلم الاجتماعي، أو نبذ أو إضعاف معتقدات المرء، بل يعني أن الشخص حر في تمسكه بمعتقداته، وفي الوقت ذاته يقبل تمسك الآخرين بمعتقداتهم، إنه إقرار حقيقة البشر في تباينهم الطبيعي من حيث المظهر والحالة واللغة والسلوك والقيم، لهم الحق في العيش في سلام وأن يكونوا كما هم»[٤].

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة]، فالقرآن "لا ينهاهم عن البر والقسط إلى من ليسوا كذلك من المشركين، وهم أشد الناس عداوة للمؤمنين أيضًا، وأبعد عنهم من أهل

(١) ثقافة التسامح في ضوء التربية والدين، رشدي أحمد طعيمة، ومحمد عبدالرؤوف الشيخ، الطبعة ١، ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠١م، ص: ٣٤.
(٢) كيف نتعامل مع القرآن، يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط٦، ٢٠٠٧م، ص: ١٢٤.
(٣) نفسه، ص: ١٢٣.
(٤) ثقافة التسامح في ضوء التربية والدين، رشدي أحمد طعيمة ومحمد عبدالرؤوف الشيخ ص: ٣٤، م س.

الكتاب، ثم أكد ذلك بحصر النهي في الذين قاتلوهم في الدين، أي لأنهم مسلمون، وأخرجوهم من ديارهم، وساعدوا على إخراجهم منها، ولكنه خص هذا النهي بتوليهم ونصرهم، لا بمجاملتهم وحسن معاملتهم بالبر والإحسان والعدل، وهذا منتهى الحلم والتسامح، بل الفضل والكمال. ولا تنس أن هذه الآيات نزلت قبل فتح مكة، وكان المشركون في عنفوان طغيانهم واعتنائهم. وقد عمل ﷺ يوم الفتح بهذه الوصايا، وقال: «أنتم الطلقاء»، وأحسن إلى المؤمن والكافر والبر والفاجر[1]". فهذا أساس خلقي عظيم وهو «أن يكون المسلم يضع الأشياء مواضعها، ويحكم لها بأوصافها، ولا يكون مندفعًا إلى جميع العوارض التي تعرض له بإحساس ودافع متحد لا يستطيع مخالفته، فالإسلام دعا الناس إلى الوحدة في دين الفطرة وأراهم محاسنها، ولكنه لم يدّعُ أتباعه إلى مناوأة من أعرض عن الدخول في تلك الوحدة واختار لنفسه الحالة الناقصة»[2]. لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، والتسامح من مظاهر رحمة الحضارة الإسلامية، إذ «بقية أسس التسامح حاصلة بوصايا الإسلام بحسن معاملة المخالفين في الدين، ليهذب من الإحساس الذي ينشأ عن المخالفة حتى لا يتجاوز اعتقاد المسلم كمال حاله إلى أن يكون عدوًّا وحنقًا وبغيضًا لأهل الأديان من جهة المخالفة في الدين»[3]، وفي رأي جون جاك روسو «أن الذين يفرقون بين عدم التسامح المدني وعدم التسامح الديني يخطئون، فإن هذين النوعين من عدم التسامح لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فمن المستحيل العيش مع أناس يعتقد بأنهم مالكون، فحبهم يعني كره الله الذي يعاقبهم. فلا بد قطعًا من إرجاعهم إلى الدين القويم أو من تعذيبهم، ففي كل مكان يقر فيه عدم التسامح الديني، يكون من المستحيل أن لا يترك بعض الأثر المدني،

(١) تفسير المنار، رشيد رضا، ص٢٧٩، م س..
(٢) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور ص ٢١٧م. م. س.
(٣) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، ص: ٢١٧، م س.

وبمجرد أن يصدر له هذا الأثر، فإن صاحب السيادة لا يبقى صاحب سيادة حتى في الأمور الزمنية، فمنذئذ يصبح الكهنة هم السادة، والملوك مجرد موظفين عندهم، والآن... ينبغي التسامح مع جميع الأديان التي تسامح مع غيرها، بقدر ما لا تنطوي عقائدها على شيء مضاد لواجبات المواطن، ولكن كل من يجرؤ على القول: لا سلام مطلقا خارج الكنيسة يجب أن يطرد من الدولة»[1] وفي هذا تأكيد على مبدأ التسامح الإنساني كقيمة من قيم الرحمة برغم اختلاف المرجعيات والأيديولوجيات.

فالتسامح ليس أثرًا من آثار الرحمة فحسب، بل هو «مرحلة حضارية ومدنية يبلغها لجماعة بشرية، حينما نتجاوز موروث التخلق والانحطاط الحضاري الذي نعانيه، والتسامح الذي ندعوا لأن يسود حياتنا الثقافية لا يعني إنهاء جدلية الصراع الاجتماعي والثقافي، وإنما يعني العمل على تنظيم هذه الجدلية، فبدل أن تكون كابحة للتطور الثقافي والإبداع الفكري، تكون من أسباب التطور الثقافي واطراد المعرفة، ولا تتوفر وسيلة متقدمة نظريًّا وأخلاقيًّا لتنظيم هذه الجدلية، أفضل من التسامح القائم على نبذ الأحكام المطلقة ونسبية الحقيقة والمعرفة»[2]. ولا مجال لذلك إلا في ظل الإسلام، إذ «لم يحفظ التاريخ أن أمة سوت رعاياها المخالفين لها في دينها برعاياها الأصليين في شأن قوانين العدالة ونوال حظوظ الحياة بقاعدة: لهم ما لنا وعليهم ما علينا، مع تخويلهم البقاء على رسومهم وعاداتهم، مثل أمة المسلمين فحقيق هذا الذي نسميه التسامح بأن نسميه العظمة الإسلامية»[3].

ومن أبرز مظاهر التسامح الذي ساد الحضارة الإسلامية عبر العصور

(١) العقد الاجتماعي جان جاك روسو، ترجمة: ذوقان، دار القلم بيروت، ط١، ١٩٧٣م، ص: ٢١٢.
(٢) الإسلام والغرب وحوار المستقبل، محمد محفوظ، ط: ٢، ٢٠٠٠م، ص: ١٤٩.
(٣) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، ص: ٢١٩. م س.

أن «الإسلام يعدُّ اليهود والنصارى أهل ديانة سماوية، حتى وإن لم يكن هذا الاعتبار متبادلاً وعلى الرغم من أن عدم الإيمان، بنبوة محمد ﷺ وهو عندنا أمر عظيم وشأن خطير، بل هو أمر فارق، فإن الإسلام قد استوعب هذا الخلاف، لا بالتهوين عن أمره، أو المهادنة العقدية له، ولكن بما رسمه في باب المعاملات من تعاليم تسمح بالتواصل والتراحم برغم خلاف المعتقد»[1]. وتكمن الرحمة في تاريخ الأديان في « تنوير العقل بحقيقة تاريخية شديدة الوضوح، وهي أن التسامح في الإسلام، هو عقيدة ثابتة وسلوك راق، بل هو منهج حياة طبقه المسلمون في حياتهم الخاصة والعامة، فكان تعاملهم مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى، مثالاً رفيعًا عز نظيره للتعايش. وهو الأمر الذي يؤكد بما لا يرقى إليه الشك أن المسلمين رواد التعايش، وأنهم يملكون، وفي كل الأحوال استعدادًا ذاتيًّا ليتعايشوا مع من يرغب من أهل الأديان والشرائع والملل والعقائد، في أن يتعايش معهم من دون أن يكون هذا الاستعداد تفريطًا في خاصية من خصائص هويتهم، أو تخليا عن معتقد من معتقداتهم، أو تنازلا عن حق من حقوقهم، وإنما هو تعايش يخدم أغراض إنسانية سامية، من خلال التفاهم والتعاون والعمل المشترك في الميادين التي تحقق هذه الأغراض»[2].

فلذلك يحق القول: إن التسامح من تجليات الرحمة على البشرية في تنظيم الحياة، ومن ثم في تحقيق التعايش الحضاري.

(١) الحوار من أجل التعايش، عبدالعزيز بن عثمان التويجري، دار الشروق، ط١، سنة ١٩٩٨، ص: ٨٣.
(٢) نفسه ص: ٨٦.

الخاتمة

يمكن إجمال أهم نتائج الدراسة في النقط التالية:

- إن قيمة الرحمة في القرآن هي أساس البناء الاجتماعي، ومفعلته ومنطلق كل تعامل بشري، سواء مع الإنسان أو مع غيره أو مع محيطه، وهي أساس العمران بتوفرها على سمات حضارية وخصائص إنسانية، تجعلها عالمية الأبعاد وإنسانية التوجه.
- مثلث ضميمتا "التنوع والاختلاف" إحدى المجالات التي امتدت فيهما قيمة الرحمة ونمت، لأن الرحمة عنصر مهم لإقرار السلام، وهي من القيم القادرة على إنقاذ البشرية من هذه الحروب، التي تهدد العالم في كيانه، كما أن التنوع والاختلاف رحمة لما يسهم به في البناء الحضاري، فهو سنة كونية وسبيل إلى التعارف المفضي للتعاون والتعايش.
- إن التسامح من تجليات الرحمة باعتباره من إحدى المجالات الفعلية الذي تتجسد فيه.
- إن قيمة الرحمة التي تعد في مقدمة الأسس والمبادئ العامة التي

تحكم العلاقات والسلوك الإنساني، تستبطن قيمًا أخرى، فهي أشمل من التضامن الذي تسعى الحداثة الغربية إلى تعميمه، كما أنها أشمل من التسامح، لأنه قد يكون في التسامح ما يخفي في ثناياه الشر، أما التراحم فهو تحقيق المصلحة للغير بكل ما يتعلق بالخير.

- قيمة الرحمة أساسية في عملية صناعة الحضارة، فالإنسانية بدون رحمة تعيش عيشة الشقاء.
- قيمة الرحمة قادرة على إخراج الإنسانية من الأزمة، التي تهدد العالم في إنسانيته، فبها يتحقق صلاح الكون.

توصيات:

١. لابد من التشبث بقيمة الرحمة كأداة لإقامة أسس التعايش والتفاهم والسلام.

٢. أن على الإنسان التشبع بقيمة الرحمة، وإظهار آثارها على السلوك، لأن نسق أي قيمة لا يظهر إلا من خلال ترجمته، سواء على المستوى الاجتماعي أو الحضاري.

٣. الوعي بأن المنقذ من هذه الأزمة يجب أن ينطلق من بعد كوني، الذي يتمثل في الرؤية القرآنية بإعادة قراءة النص وفهمه مع مقتضيات الواقع.

والله من وراء القصد، وهو يهدي إلى سواء السبيل.

فهرس المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

١. الاجتماع العربي الإسلامي مراجعات في التعددية والتنوير، السيد محمد حسن الأمين، قضايا إسلامية معاصرة، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٢. الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق ط. ٥. ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
٣. الإسلام والآخر، أسعد السحمراني، دار النفائس، ط: ١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٤. الإسلام والغرب وحوار المستقبل، محمد محفوظ، ط: ٢، ٢٠٠٠م.
٥. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
٦. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع.
٧. التعدد التنظيمي للحركة الإسلامية ما له وما عليه، أحمد الريسوني، دار الكلمة ط: ١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
٨. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، طبعة جديدة ١٩٨٥م.
٩. تفسير البغوي، الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة للنشر والتوزيع.
١٠. تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
١١. تفسير المنار، رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر ط٢.
١٢. ثقافة التسامح في ضوء التربية والدين، رشدي أحمد طعيمة، ومحمد عبدالرؤوف الشيخ، الطبعة ١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠١م.

١٣. جيران في عالم واحد، نص تقرير لجنة إدارة شؤون المجتمع العالمي، ترجمة مجموعة من المترجمين، مراجعة عبدالسلام رضوان، عالم المعرفة، ع، ٢٠١، سبتمبر ١٩٩٥م.
١٤. حضارة النبوة رحمة للعالمين، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
١٥. الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبدالرحمن، ج: ١، ٢٠٠٥م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب.
١٦. الحوار مع الغرب آلياته، أهدافه، دوافعه. د سليمان الخطيب، أميمة عبود، منى أبو الفضل. الطبعة: ١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، دار الفكر دمشق.
١٧. الحوار من أجل التعايش، عبدالعزيز بن عثمان التويجري، دار الشروق، ط١، سنة ١٩٩٨.
١٨. خلق المسلم، محمد الغزالي، دار البيان الكويت.
١٩. روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط٤، ٢٠٠٩م.
٢٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المعاني للآلوسي محمود شكري، دار إحياء التراث العربي.
٢١. الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، د، عبدالحميد أبو سليمان، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ط،: ١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، المعهد العالمي، للفكر الإسلامي.
٢٢. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، مكتبة المعارف الرياض، ط١.
٢٣. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها محمد هيشور، طبعة: ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٢٤. الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
٢٥. الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دراسة في فقه الاختلاف في ضوء النصوص والمقاصد الشرعية، يوسف القرضاوي، دار المعرفة، الدار البيضاء، (بلاط، ت).
٢٦. صحيح البخاري للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٢٧. العقد الاجتماعي جان جاك روسو، ترجمة: ذوقان، دار القلم بيروت، ط١، ١٩٧٣م.
٢٨. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١٧، ١٩٩٢م.
٢٩. قيم الإسلام الحضارية نحو إنسانية جديدة، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لدولة قطر، ط:١، محمد عبدالوهاب الخطيب، ١٤٣١هـ.
٣٠. كتاب الأمة، الإسلام وصراع الحضارات، أحمد القديري، عدد: ٤٤، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٣١. كشاف اصطلاحات الفنون محمد علي التهاوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق لطفي عبدالبديع.
٣٢. كيف نتعامل مع القرآن، يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط٦، ٢٠٠٧م.
٣٣. لسان العرب ابن منظور، مادة "رحم"، مج ٦ ط٤، ٢٠٠٥ ص:١٢٤ ونفس المعنى وارد في مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي طبعة محققة، مكتبة لبنان ١٩٨٦م.
٣٤. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر سليمان الهيثمي، دار الكتب العلمية، ط١.
٣٥. مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام

محمد هارون، مج٥، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٣٦. نحو تصور حضاري للمسألة المصطلحية، الشاهد البوشيخي، فاس ط ١، ٢٠٠٢م.

- المجلات:

١. إسلامية المعرفة، العدد،: ٥٦، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢. إسلامية المعرفة السنة التاسعة، عدد: ٣٣-٣٤، صيف، وخريف ٢٠٠٣م.

٣. مجلة التسامح صيف، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، العدد ٧، السنة الثانية.

٤. مجلة التسامح، ع: ١١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٥. مجلة التفاهم العدد٣٧ السنة العاشرة صيف ٢٠١٢م/ ١٤٣٣هـ.